الأستاذة: د. أمينة أونيس
كلية الآداب واللّغات
قسم اللّغة والأدب العربي
السنة الدراسية: 2023/2022.
السداسي الأوّل

المادة: نقد النثر القديم (تطبيق)
الاختصاص: دراسات نقدية
السنة: الثالثة ليسانس.
الأفواج: 01 + 02.

الخطابة عند جورجياس (485 – 380 ق.م)

يرى جورجياس أنّ الكلمة خداعة، وليست انعكاسا للأشياء فاللّغة لا يمك أن تحل محل الأشياء الخارجية بالفعل، فهناك فجوة بين لكلمات والأشياء، وبالتالي لا يمكن معرفة الحقيقة من خلال اللّغة ويتعذّر مع ذلك أن تكون هذه الآراء مجرد تلاعب سوفسطائي بالألفاظ.

ويعتبر جورياس أنّ اللّغة مجرد وسيلة للإقناع الذي هو أقوى من الجدل المنطقي، حيث إنّ الإقناع له سيطرة وسيادة، فلا توجد حقيقة تعلو فوق ما يقتنع به الإنسان.

كما أنه أنكر وجود أي صلة بين الكلمة والشيء الذي تصفه، فالكلمات تسمي الأشياء عن طريق الاتفاق بين مستخدمي اللّغة، ولقد أوضح جورجياس التأثيرات الخطيرة للغة واعتبر أنّ الفكر الذي ينتج عن الاقناع لا يمكن الوثوق به.

ويعترف جورجياس هنا بعدم إمكانية الاعتماد على الفكر بوصفه مرشدا للأحذاث، لكنّه أكّد عدم وجود وسيلة أخرى، حيث إنّ الإنسان لا يستطيع أن يعرف ولا أن يؤكد، لكنه يتعامل على أساس المشاعر والأحاسيس، فالخطيب بالنسبة لجورجياس يخلق في المستمع عن طريق اللغة نوعا من الأحاسيس تقوده إلى أفعال يرغب في تحققها، وبالتالي فإنّ اللّغة تعيد خلق إدراك المستمع للأشياء.

ويؤمن السوفسطائيون بصفة عامة، وجورجياس بصفة خاصة باستحالة وجود حقيقة واحدة مطلقة، ويتلخص دور الريطوريقا عندهم في خلق الاحتمالات، وبالتالي توجد حقائق متعدّدة لا حقيقة واحدة، وهكذا فإنّهم يؤكدون أنّ وظيفة اللوجوس ليست للتعبير عن الحقيقة، لأنّ اللّغة ليست انعكاسا للواقع، فهم يؤمنون بأنّ أي حقيقة تزول عند ظهور حقيقة أخرى غيرها، وأنّ وظيفة الكلمة إثارة المشاعر والأحاسيس، والتأثير في المستمع، ولا علاقة لها بالبحث عن الحقيقة.

ويعلن جورجياس أنه يمنح تلاميذه أعظم نعمة يتمتع بها الانسان، وهي نعمة لا تتجلى في الحقائق المجردة التي ينشدها سقراط، وإنما هي النجاح الذي يمكن أن يمنح من خلال قوة الكلمة؛ كما أعلن أنّ تلاميذه سيكتسبون القدرة على الإقناع - بواسطة الكلام – أمام هيئة المحلفين في المحكمة، وأمام أعضاء المجلس و المصوتين في الجمعية العمومية، وأمام أي تجمع قوامه المواطنون.

ونظرا لأن السوفسطائيين كانوا يعرفون مدي تأثير المقاطع والايقاعات والموسيقي في الحالة النفسية للمستمعين، فقد كانت لهم اهتمامات في هذا المجال بكل ما له علاقة قوية باللغة، إذ ادركوا قدرة الصوت الإنساني في خلب ألباب المستمعين من خلال توظيف الايقاعات والنغمات، بحيث يصبح المستمع في حالة يسهل بمقتضاها التأثير فيه، وهذا هو ما جعل جورجياس يؤكد أن الكلام مثل السحر، وأن له قدرة انتاج الخيالات.

وكما أن للأدوية تأثير في الجسم فالأصوات لها تأثير في النفس وحالاتها من حزن وألم وفرح حيث إن قوة الاقناع تعتمد على المتحدث الجيد بصرف النظر عن كون ما يقوله حق أو لا، فالكلمات هي التي تشكل الفكر أو الرأي، حيث يكون المستمع فيها صورة بعقله هي التي تؤثر في نفسه.

ويؤكد جورجياس أن الكلام ما هو إلا مادة أو نوع من السحر، ومن ثم فإن الكلام يؤثر في المشاعر أكثر مما يؤثر في العقل، فالخطيب الذي يدرك مرونة الفكر الإنساني قادر أن يوجه الشعور الإنساني ويتحكم فيه .

ولقد شبه جورجياس تأثير الكلمة في النفس بتأثير الدواء في الجسد، فمثلما تختلف تأثيرات الدواء في الجسم، ويجلب بعضها الشفاء والراحة وينهي بعضها الآخر حياة الفرد، كذلك الكلمات بعضها يسبب الألم، وبعضها يثير الفرحة، ويقضي بعضها الآخر على الخوف ويحل محله الشجاعة

إن قوة الكلمة بالنسبة لانضباط النفس (معادلة) لأثر الأدوية في طبيعة الأجسام، فكما أن طائفة من العقاقير تخلص البدن من الأخلاط المختلفة، وطائفة أخري تخلصه من المرض، وطائفة ثالثة توقف (استمرار) حياته، كذلك الحال بالنسبة للكلمات :فبعضها يسبب الألم، وبعضها يبهج ويمتع، وبعضها يثير الرعب، وبعضها يكسب السامعين الجسارة، وبعضها يخدر النفس ويسحرها عن طريق قوة للاقناع ذات خبث ودهاء ".

إن تشبيه جورجياس للوجوس بالدواء الذي يمكن أن يشفي ويمكن أن ينهي الحياة، يمثل إدراكه لحقيقة مفادها أن فن الاقناع مثل الدواء يمكن أن يكون مهلكاً أو يكون مفيدا. ولابد للخطيب عند جورجياس أن يكون محترفاً في استخدام اللغة، وأن تكون لديه معرفة بالعواطف الانسانية، وأن يربطهما معا في وحدة وظيفية واحدة لتؤدي الخطابة تأثيرها في النفس البشرية وهكذا لم يربط جورجياس بين ممارسة الخطابة ومعرفة الحقيقة، لكنه ربط بينها وبين إقناع الجمهور.

فالخطيب المحترف يستطيع من خلال الكلمات أن يحقق الهدف الذي يريده سواء كان فرحاً أو حزناً وبهذا فإن جورجياس يؤكد أن قوة اللغة ليست في أنها تقدم لنا جوهر الأشياء، وإنما في أنها تخلق تأثيرات في النفس، مثلما تفعل الأدوية في الجسد وكأن جورجياس بمقارنته تأثير اللوجوس بتأثير الدواء يريدنا أن نفرق بين نوعين من الاقناع أحدهما مذموم والآخر مستحسن، حيث إن الخطابة يمكن أن تقدم اعتقاداً زائفاً أو صحيحاً.

يؤكد جورجياس ضرورة استخدام الريطوريقا بمعزل عن الأغراض الأخلاقية، فالخطباء ليسوا أحرارا في استخدام قوة الاقناع (اللغة) لخداع الجمهور، والتغاضي عن كل المعقولات، كما أن الخطابة قد تستخدم للخير أو للشر، لذلك ينبغي ألا يلام معلم الخطابة إذا استخدم تلميذه الخطابة بشكل خاطيء، فالأمر مثل مدرب الملاكمة الذي ينبري تلميذه لملاكمة والده، فلا ينبغي أن تلام الخطابة علي النتيجة، حيث إن تعاليمها لها تأثيرات مختلفة في التلاميذ حسب إختلاف شخصياتهم بهذا فقد أعفي جورجياس نفسه من أي مسؤولية.

الريطوريقا إذن عند جورجياس ليست فن تقديم الحقائق بل فن استخدام اللغة، فهدف الكلمة خلق أوهام جميلة تضع حداً للخوف وتطرد الحزن وتخلق السعادة والشفقة، وهذه هي الأسس التي بني عليها جورجياس نظريته الخطابية.

وربما كانت الأسس أفلاطون وغيره مبررات لمهاجمة الريطوريقا ، فالكلمة تجلب السعادة لأنها كتبت بمهارة لا لكونها تنطق بالحقيقة. فالحق أن جورجياس نفسه كان يعتمد على التركيبات الشعرية والمحسنات البديعية، مثل الجناس والسجع والتضاد والجمل القصيرة .ولابد هنا من الاشارة إلى أن جورجياس كان يري في الكلمة قوة والتزاماً يسهمان في استخدامها لغرض أخلاقي، ولم يكن مثل الصورة التي يرسمها له أفلاطون في أعماله، واصفا إياه بأنه يستخدم الخطابة لترسيخ أفعال غير عادلة.

يقول جورجياس في عمله "عن اللاوجود": **" لاشيء موجود ولو كان موجوداً فلا يمكن فهمه، ولو فهم فلا يمكن التعبير عنه أو التواصل معه**" ويقصد جورجياس بهذا أننا لا نعبر عن الاشياء ذاتها بل نتحدث عنها بالكلمات فقط، والكلام يختلف عن الأشياء الموجودة نفسها؛ والمقصود هنا أن وظيفة اللغة ليست معادلاً للاشياء، لأن الغرض منها هو التعبير عن المشاعر والاقناع، ويظهر ذلك في المرافعات القضائية، وما تحدثه الخطبة من دغدغة لمشاعر الجمهور من خلال مهارة التأليف لا من خلال عرض الحقائق. وربما كان هذا هو السبب الذي جعل الكثيرين يعتبرون أن السوفسطائيين متاجرون بالحقائق وليسوا معلمين.